

فصل تمهيدي للدراسة

1- نحو أفكار نفسية إيجابية لزمن عصيب

إنّ حراك الشّارع العربيّ الذي وضحت أهدافه، كان يرمي ظاهرياً إلى إشادة دولة مدنية تُعاش بها الحياة، وفق مبدأ العدالة الاجتماعية الذي يحفظه القانون بعيداً عن سمّ الطائفية والإثنيات المختلفة، ولكن ما خفي واتضحت معالمه كان غير أصيل في جوانب عدة، وبكيفيات وممارسات للمعارضة السياسية في أكثر من بلد عربي، وأخص منها على وجه التحديد بلدي سوريا.. ومن القراءة الواقعية لعيش الديمقراطية والتطوير الثقافي في عالمنا العربي، لا بدّ من دفع ضريبة باهظة لهذه الحداثة على ما يبدو ما زالت بلداننا يتعذر دفع استحقاقاتها والمروور بمخاضها العسير بسبب التموضعات الشاذة للمفاهيم الحديثة التي مازالت غير ناضجة في فكر الدعاة لها قبل أن نتكلم عن وضوحها لدى العامة، فضريبة الفكر الديمقراطي والانفتاح السياسي وتحييد الدّين عن السياسة ما زال غير مكتمل الطرح بما يحقق مقاربات تطبيقية صحيحة لذلك، كما حصل في تاريخ الشعوب التي سبقتنا إلى هذا المناخ السياسي والفكري العام، ودفعت لذلك ثمناً كبيراً وضحايا أكثر عددهم..

يتراقف الحديث عن الحضارة بالحديث المرتبط بالحديث عن الجمال والنظافة والنظام دائماً، وهي جميعها عناصر تحتل موقعاً متميزاً في شروط أيّة حضارة عاشتها البشرية، فالى جانب عناصر الحضارة الثلاثة التي ذكرتها، يشير "فرويد" مؤسس علم النفس التحليلي، إلى بعد العلاقات الاجتماعية التي تتضمن وفقاً لما عرضه "فرويد" ما يلي:

1- العدالة بما تتضمنه من حقوق وواجبات.

2- الحرية الفردية التي تتعارض مع النّتاج الثقافي.

3- التطور الحضاري الذي يفرض على الحرية الشخصية الكثير من الضوابط والتضييق.

وبذلك فإنّ التّماذي في التّضييق على الحرية الفرديّة، يؤدي إلى بناء طباع شرجيّة (طباع سادو مازوشية) على اللاتحة العيادية، وذلك من جراء تأثير ضربات الأنا الأعلى العاملة وفقاً لمبدأ الواقع.. حيث إنّ المرجع والموجه الكامن والحاسم لعملية القمع، يسمى بالأنا الأعلى، والمتمثل بالصّميم أو الوعي الجماعي الذي يتأتى من مصدر القمع الذي يطال العدوانية على الآخر، هذه العدوانية التي تخضع للكثير من وسائل القمع المتنوعة والمتعددة.

إن الآلية التطورية تؤدي حتماً إلى التّسامي في تطويع الغرائز: غرائز التّدمير، وغرائز الحياة لنمو ثقافي يؤدي لإطلاق العنان للأنشطة الذهنية والنفسانية الأبرز، والأكثر سمواً وجماعية مثل الأنشطة العلمية والفنية والأيدولوجية وهي أنشطة تقوم بأدوار فاعلة ودافعة في حياة الأفراد "المتحضرين".

فحياة البشر تحكمها قواعد تنطلق من الحاجة والرغبة، ودافع الحاجة كما تعلمون إلزامي وضروري، أمّا دافع الرغبة فتحكمه قوة الحب، حيث إنّ العلاقة بين الحب والرغبة في الحياة كمؤشر على حضارة السلوك الإنساني، تظهر على نحو ما بمعادلة يؤثر كل منهما على الآخر، فالحبّ يقاتل أهداف الحضارة القائمة على كف الحبّ وصدّه، وتهدد الحضارة الحبّ باختصار، واختزال وتضييق مؤلم للمتعة واللذة، وهنا تكمن معركة الشّخص مع رغباته ومآلاتها...

علم النفس التحليلي متمثلاً "بفرويد" له وجهة نظر خاصة حول التبادلات الخفية والعنوية ما بين الحضارة والعدوانية وطاقة الحب، وذلك من خلال الرؤية القائلة: إنّ الحضارة تعمل جهدها لكي تحصر العدوانية الإنسانية، "فرويد" يرى أن هناك جدلية بالغة التّعقيد بين الحبّ والمجتمع، فالحضارة تفرض تضحيات كبرى وقاسية على الإنسان مشيراً إلى القتل، والاضطهاد والتّعذيب، ووجهة نظر "فرويد" انطلقت من كون الحضارة تعمل جهدها، لكي تحصر العدوانية الإنسانية وتحرص

طاقات الحب لتعطي ثمارها في التراث الحضاري للشعوب، بحيث إنه وتبعاً لـ "فرويد": إنَّ التّضحيات الكبرى التي تفرضها الحضارة، لا تطال فقط الحياة الجنسية والعاطفية عند الفرد، وإنّما تطال اتجاهه للتعبير، حتى عن العدوانية والصّراع مع الآخر، ومن تطبيقات هذا الصّراع بين الأغلبية والأقلية.

بمعنى أنّ الأغلبية تشكل ناموس الجماعة، وضميرها الأخلاقي والأقلية تمثل المنتمي الأصغر لقانون الجماعة، وهذا الصّراع يتجلى بشكل قياسي في الصّراع بين الولد وقانون الأب.

الأب يارثه القديم الممتد والابن بحدائته، وتمرده واختصاره للمراحل، في عيش المتعة.

هذا السّعي من الابن الذي يريد أن يعيش رغبته، بدون مراعاة لقانون الأب.. من هنا وبربط المسائل بجزئياتها نجد أنّ تقدم الحضارة الإنسانية بشكل عام يؤدي إلى السّيطرة على الإحباطات الضاغطة على الحياة الاجتماعية، وبالمقاربة النفسية للواقع يمكن تفسير ذلك، بفهم آلية سيطرة النّزوات الإنسانية العدوانية على الآخر، وبوساطة نزوات التّدمير الذاتي حيث يتولد الصّراع القائم على التّدمير، إذ يبرز العارض المرضي في بنية الجهاز النّفسي تبعاً لذلك متمثلاً بلغة الكبت وفشل الكبت، وعودة المكبوت بالفعل وبالرمز، وذلك من خلال التقاطع في العمق ما بين النّزوة والواقع على مستوى التّبادلات الوجودية، والوجدانية اليوميّة...

إن دينامية العمق في الإحساس الإنساني محكومة بحركة المكان وحركة الزّمان، وما بينهما من فراغ وغياب أو بعد.

والفراغ إذا ما وجد لا بدّ أن يتم ملؤه بالهوامات، والرّموز والتّعابير السّوية أو المرضية على أنواعها، فالفراغ هو غياب المعرفة، ولذلك لا بدّ أن يملأ إما بالمعرفة أو بالتّصورات عنها. حيث إن الفراغ في اللاوعي هو غيره في الوعي، الذي يشهد حركة امتلاء نسبية، والوعي هو حصيلة التّطور للحركة وللمسار الجماعي والفردية.

والفراغ بذلك يكون على علاقة بمدى وبصدي، وبرجيع الانفجار للكبت الطويل، إذ لا شيء يخلق من عدم، ولا شيء يضيع، كل شيء يتحول حسب "لافوازييه" ..

ولما كان نكاء الإنسان غالباً ما يوضع في خدمة العاطفة كعملية دفاعية، وآلية تشكيلية للعارض النفسي المرضي، فإنّ مفاهيم التّحليل النفسي على سبيل المثال محكومة إلى حدّ بعيد بمنطق، ومفاهيم الفيزياء والكيمياء وثوابتها وحيثياتها وحتى العلوم الاقتصادية...

ومن هنا كانت عظمة التّحليل النفسي كتقنية نفسية علاجية، أسهمت ممّا لا لبس فيه، لتطور علم النفس الحديث، وتمكينه حتى أصبح علماً أساسياً من ضمن صنوف العلوم الحديثة، التي لا يمكن للبشرية اليوم العيش بدونها.

وأخيراً، وبالمقاربة النفسية السياسية لواقع الحال في بلدنا سوريا، أجد أنّ سوريا الحديثة التي أستبصرها إحساساً قبل أن يعمل التفكير العقلاني عمله، لا بدّ أن تأخذ بمسار العلم لتنتعش، وتوظف القانون الطبيعي الذي يحكم الإنسان بالفطرة، إلى القانون المدني الذي يخطه الإنسان بما يتلاءم وقانون الفرد وعلاقته بالجماعة.

هذا هو قانون المواطنة ما بين الأنا والآخر المتمثل بالمعنى النفسي السياسي بمفهوم المواطنة.. الآخر في سبيل الآخرين، هذا الآخر الذي يعمل ويخضع للضوابط التي تلائم الأغلبية بدون ضياع حقوق الأقلية، بأن يصبح الواحد في خدمة المجموع، والمجموع في مصلحة الفرد...

حينها فقط سيأخذ علم النفس مكانه المسؤول، وتعاش الرؤى النفسية التحليلية إبداعاً، ونماءً بتفكيكها للعقد المتراكمة من جراء كبت الرغبات، وعدم المصالحة مع قانون الأب بقبول الخفاء أي بقبول حدودنا، وعدم التّعدي على حدود الآخر الكبير...

فكمّ يزداد التّوق لعيش المنطق الحضاري في حياتنا اليومية الاجتماعية والمهنية، بعد هذا المد العنيف الذي عشناه في السنوات الأخيرة، وما زلنا نعيشه...

2 - الأنا المثالي (الشَّفقة والنظرة الدّونية للآخر)

بعيداً عن نظرية المؤامرة والأخذ بالأسباب، يكون التفهم لفهم الأحداث، فكل منّا له موقعه ومعطياته المنطقية والواقعية، وبطرح موضوع هذه الدراسة وفقاً لمبدأ الحتمية النفسية للتشنئة أجد أنّ..

الشخص المثالي: هو «الذي يعيش منذ طفولته حالة من الحذر والخوف ضمن نسق من القناعات والمفاهيم البعيدة عن الواقع، دائم القلق من الخطأ، حتى لا تنكسر هذه الصورة المثالية التي أحاط بها نفسه نتيجة لبؤس متشدد للتربية من قبل أسرته ومحيطه الاجتماعي».

والأنا المثالي أو الأنا الأعلى كما وصفها "فرويد": إنّها شخصية المرء في صورتها الأكثر تحفظاً وعقلانية، حيث لا تتحكم في أفعاله سوى القيم الأخلاقية، والمجتمعية والمبادئ مع البعد الكامل عن جميع الأفعال الشّهوانية أو الغرائزية. فالأنا الأعلى تبعاً "لفرويد": «يمثل الضمير الذي يتكون ممّا يتعلمه الطّفل من معايير أخلاقية من والديه ومجتمعه، فهو لذلك مثالي وليس واقعياً، يتّجه الكمال فيه ليس إلى اللذة بل إلى التّسامي» (معجم المصطلحات النفسية والتحليلية، 111).

فإن استطاع الأنا أن يوازن بين (الهو والأنا الأعلى والواقع) عاش الفرد متوافقاً، أمّا إذا تغلبّ هو أو الأنا الأعلى على الشخصية أدّى ذلك إلى اضطرابها، ولما كانت أنظمة الشخصية الثلاث: (الهو والأنا والأنا الأعلى) مستقلة عن بعضها، إذ يمكن وصف هو بأنّه: الجانب البيولوجي للشخصية، والأنا: الجانب السيكولوجي للشخصية، والأنا الأعلى: الجانب السيسولوجي للشخصية (عباس، 16).

من حيث إن الجزء المتراكم من القيم الاجتماعية المستمدة من الأسرة والمجتمع بأسره، هو الضمير الضابط الخلفي للفرد، وفي وجوده تحترم اللباقة الاجتماعية، ودوام الكرامة الإنسانية، وفي غيابه تهان.

هناك عبارة شهيرة "فرويد" يقول فيها: «عندما يقتل الإنسان في مقاومة "الهو" هنا تتشكل شخصية المنحرف، والمعتدي على حقوق الآخرين، الذي يسعى فقط لإشباع غرائزه، وعندما يتكون لديه قدر جيد من سمات الأنا، تتشكل شخصيّة كإنسان عادي متوافق مع مجتمعه المقاوم لرغباته بعنف، وعندما ينجح هذا الإنسان في تكوين الأنا الأعلى هنا: تظهر شخصية الرّاهب»، ويقول "فرويد" أيضاً: «أو تتشكل شخصية المؤمن المفكر العابد». مما لا شك فيه أن عمر الإنسان، هو حصيلة تناوب اللحظات في سيطرة أحد أبعاد الشخصية علينا كبشر، وتحكمنا في الحقيقة هذه السيطرة لنوازع الأنا في حياتنا اليومية، فنعيش تناوباً وتكاملاً بين كل مستوى من منظومة الشخصية من وقت لآخر، إذ هذا هو النسق الذي يفرض إيقاعه على مسيرة حياتنا الآنية وتطلعاتنا للمستقبل وفق جدلية عيش الرغبة أو كبت جماحها من جراء الخوف وضوابط المجتمع المتمثلة بالأنا الأعلى.

من هنا يأتي السؤال الذي يستدعي طرحه، أين سيذهب هذا المخزون من الكبت عند الشّخص الذي ينشأ على الخوف؟ فيأتي الجواب وبدون تأخر: من خلال محاولتنا تفسير حالة الكبت التي نشأ عليها مثل هذا الشّخص، فلما كانت تربيتنا العربية متشكلة على الإغلاء والتّسامي والابتعاد عن المحظورات والمحرمات، والتي يلزم أن تعاش وفق جو من الطّمانينة والثقة مع المرين ابتداءً من الأبوين إلى المعلمين في المدارس إلى الشيوخ والقساوسة في الجوامع والكنائس، وصولاً إلى النّواميس والقوانين المجتمعية عامة، في هذا الحال تبدو خطورة الكبت أخف، ولكن في حال لم تتم التربية على مبدأ التّسامي، وعيش الابتعاد عن المحرمات لأجل مبدأ سامٍ كالنّدين مثلاً، أو في أحوال أخرى لأجل قيم العائلة، فإن الشّخص الذي تمارس عليه تربية الممنوع من دون إعلاء قيمة عليا، تكون أفعاله في وقت لاحق خطيرة عليه قبل أن تنعكس على الآخرين، ولكن لما كان الإنسان دائماً وبشكل غريزي وفطري يعيش سلوكاً بدائياً، بتحكم غريزة البقاء

قبل أن يعيش بالعقل والوجدان، لذلك تظهر كل الدفاعات لديه ليحمي نفسه، ولو كان ذلك على حساب أقرب المقربين له..

من هذه المحاكاة أصل إلى أن: الكبت لا طريق له للتفيس عن حملته الثقيلة على الشخص، إلا بأمرين:

- أولاً: إمّا المرض النفسي، العُصاب في أحسن الحالات، أو الذُّهان في الحالات الأشد والأخطر.

- ثانياً: الجنوح إلى تشويه صورة الآخرين بإسقاط مكبوتاته عليهم، فنراه يجد نفسه فقط هو الشخص الجيد، وكل من حوله هم من الخطأة والأشرار، وبالتالي إسقاط الشر الموجود داخله على الآخرين، كي يحفظ أناه المثالي في اللاوعي من التشوه، فهو يأبى عدم الاعتراف بهذه الحقيقة، فيغدو سلوكه المثالي حالة دفاعية من درجة عالية تؤدي إلى عدائية الآخر وإغائه، فالآخر غير موجود في حياته، بل الموجود هو الأنا المثالي فقط، فهنا تبدأ مسيرته من خلال التباهي بالأنا المثالي، ثم كبت كل ما هو غير مثالي، وإسقاط هذا المكبوت على الآخر. (عباس، 124).

لذلك عندما يعامل الأنا كأنه الموضوع المهجور، فيكابد كل ضروب الانتقام والعدوان الموجهة لهذا الموضوع، والنقمص النرجسي والتناقض الوجداني، وتكوين الأنا والعناصر التي تدخل في بنائه، "فالأنا ملكة أو قوة تراقب وتنقد وتوازن على الدوام" (المرجع السابق، 14)، فهي بهذا تتاهض الجانب الآخر من الأنا الأعلى، حيث إن خلق الأنا المثالي يحصل ليستعيد الشخص الصورة عن نفسه، هذا الرضا الذي كان لصيقاً بالنرجسية الأولى، السلطة الرافدة للأننا هي ما تعرف بالضمير، وهي تعمل حتى في النوم وترصد الأحلام، وتفرض الكبت على الرغبات المرفوضة اجتماعياً تبعاً للتربية الأسرية والتنشئة الاجتماعية.

مثل هؤلاء الأشخاص، كيف نساعدهم، في حال تعديهم، وخرقهم للمحظورات

الاجتماعية؟

فإذا تصرفنا معهم بعنف، ورفضنا مثاليتهم، فهم يعودون إلى أنفسهم الضعيفة المرفوضة من قبل الناس، ويستنتجون بمفردهم، ومن خلال هوماته أنهم مرفوضون من الناس.

وفي حال تعاملنا مع شخص كهذا بقبول وبصورة طبيعية، فسلوكنا ليس مقبولاً أيضاً، وتقع علينا مسؤولية توضيح الأمور، ووضعها في نصابها الصحيح، إذ لا بدّ في البدء من عدم المهاجمة الفورية، والحكم على هكذا أشخاص فقط من سلوكهم الخارجي. إذ لا بدّ من التفهم، لأننا في حال التّهجم والتّقد، لا نستطيع أن نضعهم موضع تساؤل.

أولاً: مع النّفس.

وثانياً: أمام القانون.

وثالثاً: الشّفقة ليس حلاً، لأننا حين نشفق على شخص لا نرى إلا نقصه وألمه، ولا نراه كآخر ندّ له وجود وحاجات ورغبات واتجاهات مثلنا، على رغم اختلافها عن اتجاهاتنا.

وهنا أجد أنّ خطاب المحبة، لا بدّ أن نوظفه في تعاملاتنا، بأن نجد في المختلف عنا الضعف والقوة بأن واحد، لا أن نجده مفككاً متجزأً، لأنّ المحبة تجعلنا، نرى الضعف ونتقبّله ونسامحه، وفي سلوكنا هذا مع هؤلاء الأشخاص المغرقيين في المثالية، نعيش الرّحمة المطعّمة بالمحبة.

بحيث إنّ الشخص الذي يضع نفسه في موقع عيش المثالية، هو شخص يعيش منذ طفولته هواجس الخوف، خوف من أن يخطئ، لأنّه يدرك أنّه في حال الخطأ تنكسر الصّورة المثالية التي يحيط بها نفسه، أو يعنونها كرداء واقٍ لعقد نفسية مختلفة.

مثل هذا الشّخص، لا بدّ أن نؤطره ضمن واقعه، رحمةً بنا وبه من آثار أخطائه المؤذية للمحيطين به، ولنفسه أيضاً.

إذ إن صورة الذات لديه غير ناضجة، وغير متحققة، لكون التّوجيه التربوي

الناقص في طفولته، تتطلب منه هذه المثالية من خلال رفض المحيط لأخطائه، فنشأ وهو بأمرّ الحاجة إلى الحبّ والرّحمة. هذه هي الاعتبارات الأساس للنضج النفسي السليم والمسالمة، إذ بالتنشئة على المحبة، لا خوف من الاعتراف بالخطأ وتحمل مسؤوليته وبالتالي تجاوزه، فعندما نقبل أخطاءنا كما هي، ونحب ما هو جميل عندنا، نكون الاعتراف بالخطأ، ولادة للشخص من جديد.

رابعاً: الشخص المثالي ليس له ذات، أي لا يوجد اهتمام بقيمة الذات لديه، وبالتالي لا توجد ثقة بالنفس، فكيف يستطيع هذا الشخص، أن يجد لذاته مبررات لسلوكه، فلا يجد لذاته صدى في خطابه للأخر إلا من خلال الإلقاء بالتهم والمذمة على هذا الأخر المقابل له.

خامساً: الشخص المثالي لا يحسّ بقيمته فقط، عندما يصغي أحد ما إلى كلامه، بل يجب أن يتعلم كيف يصمت ويصغي إلى كلام الآخرين، الولادة من جديد أو التحرر من الضغوط، لا تكون فقط بالإصغاء والكلام وحسب، بل من خلال العمل.

سادساً: التعلق بالأخر يجب أن لا يصل للحد الذي يجعلنا ندوب أو نندمج في الأخر، ونلغي شخصيتنا، فلكل منا شخصيته المستقلة، وبإمكانه محاولة العيش من دون الاندماج بالأخر حتى لو كان محبوبه، أو أحد المعجبين به.

إنّ العلاقة مع الأخر هي علاقة تفاعلية بين طرفين، علاقة يُعاش فيها الخطأ والصواب، ولكن هدف هذه العلاقة في النهاية هو عيش السلوك الصحيح والمستقل والمناسب لكلا الطرفين، أما في حال ظلّ الشخص المثالي متمسكاً بقناعاته، مقدماً نفسه بصورة مشوهة غير واقعية من خلال تفاعله مع الآخرين، فإن لم يقدر على اكتشاف خطئه، وسؤال نفسه هل هناك من يقبل خطئي أم لا؟ سيظل يلقى تبعات هذا السلوك على سواه كلما تقدم به الزمن.

إن المعرفة بخصائص الشخص الذي يغدق نفسه بالمثاليات، تضعنا في خانة سلوك معين، لنجد الشخص وفقها مولعاً بنفسه كثيراً وغارقاً بها، وهنا تجدر

الإشارة إلى أن ملامح الشخصية المثالية ملازمة للبنية النرجسية للشخصية، وأبرز ما يميزها شدة الإعجاب بالنفس من خلال النظرة المتعالية للأنا.

وهنا بالمعنى النفسي الاجتماعي نجد أنّ الضعف لدى الشخص النرجسي يتمثل: بضعف الرؤية له من خلال تثبيت ما يراه في نفسه، وإحاطة نفسه بهذه الهالة، التي تجعله يغرق بها، ويجد فيها منتهاه والتذذ فقط بصورة نفسه في المرأة المسطحة، وليس صورة نفسه بعيون الآخرين، وهذا ما قصدته من أنّ سلوكه هذا يستوجب منا التفهم والرّحمة لهؤلاء الأشخاص، لأننا لا نستطيع أن نكتشف ضعفهم، وهم لم يكتشفوا قوة سواهم، فسلوك الرّحمة الواجب علينا تجاههم يعني التقبل لهم، في حين سلوك الشّفقة يعني النّظر إليهم بدونية ورفض، ممّا يحرض طاقات الغضب والعدوان لديهم، لتغدو هذه السمات، بما لاشك فيه تعيق العيش الاجتماعي المشترك، وفق معايير ومبادئ النّظام الديمقراطي ومنطق العدالة الاجتماعية من خلال مبدأي المواطنة والانتماء.

سابعاً: من خلال معرفتنا بالآخر هناك أشياء نعرفها عنه مراراً، وهو لا يعرفها عن نفسه سواء كانت صفات إيجابية: كالكرم على سبيل المثال، أم سلبية من خلال تكراره لكلمات عفوية، أو زلات لسان، أو حركات متكرّرة، بشكل ملفت يقولها لا شعورياً، دون وعي منه، وفي المقابل أضع نفسي محل هذا الآخر، بحيث يمكن أن يعرفني هو، أكثر من معرفتي لنفسي.

ودور اللاوعي يكمن جلياً من خلال الأمور اللاإرادية المكبوتة لديه، والتي تعدّ مجهولة في تعامله مع الآخر، لأجل ذلك قد يكون تكرار الإسقاط من حيث هو معرفة لا واعية عن النفس تنصب على الآخر، بحيث يتم الإسقاط عليه أموراً غير موجودة فيه، ونفترض أنّها موجودة، كما أنّه يمكن أن يتم إسقاط أي أمر على الآخر دون أن يعرف، وعندما يعرف يجد هذا الأمر غير موجود لديه، وهنا يحصل رد الفعل الرافض والمتسم بالسلوك العنيف تجاه مصدر الاتهام، أو بالأحرى الإسقاط.

ثامناً: إن التفاعل مع الآخرين لا شك نعيش فيه الألم والكدر أحياناً، حيث لا وجود للحقيقة بدون عيش ألم، ويجب أن نتذكر ذلك حتى لا نصاب بخيبة أمل في علاقتنا بالآخرين من حولنا، إذ بإسقاطنا صفات معينة عليهم نصطدم بغرابة استجاباتهم، وذلك في الحالات التي لا يتحقق ما أسقطناه عليهم من تصورات، وأيضاً عندما لا يكون الآخر على قدر حلمنا وطموحنا فيه، نجدنا نصاب بالحزن، لذا لا بدّ أن نذهب أبعد من الحزن، ونبحث عن الحقيقة بالآخر بمعرفتنا لقدراته وسماته الشخصية، والحديث عن التربية الإسقاطية التي نجدها تغزو تفكيرنا في المرحلة الأخيرة من عمر بلادنا، أو عهد الانقلابات الثورية العربية الحالية، تلك التربية الإسقاطية المبنية على التقمص الإسقاطي وفق ما تجده "ميلاني كلاين" إذ ومنذ العام (1946) كتبت "ميلاني كلاين" كثيراً عن موضوع التقمص، ومما ذكرته، وأجد ذكره، هنا، يعيننا على توضيح الفكرة التي أسعى لإبرازها من خلال اكتمال الإحاطة بها بالفهم والاستيعاب لخفايا سلوك التنشئة وملابساته المختلفة، تبعاً للظروف المجتمعية المحيطة بالأسرة. تقول "كلاين": «إن التقمص الإسقاطي يرسخ النموذج الأول للعلاقة العدوانية مع الموضوع الذي يظهر في حالة الخوف، بحيث يمكن أن نجد الفرد ينقل الجوانب السيئة من ذاته، ويسقطها على الموضوع مما يشكّل لديه قلقاً، كلما حضر الموضوع أو تم تخيله.. والتقمص الإسقاطي هو نقل لكل الصفات المرفوض وجودها في الذات إلى الخارج، وإسقاطها على مواضيع الحبّ الخارجية بهدف التحكم فيها، ومحاولة تحطيمها لأنها تشكل منبع قلق شديد للذات...».

تاسعاً: لا بدّ أن ننطلق من الواقع للبحث عن حياة تحكمها المثل والقيم العليا، وليس العكس، أن ننطلق من المثالي إلى الواقعي. إذ المطالبة بعيش المثاليات تجعلنا نغرق ونتوقع بهومات، تبعدنا عن التفاعل السليم مع الآخرين...
عاشراً: إنّ الصورة المثالية التي يحاط بها الشخص عندما يطمئن لقبول الآخرين له تنكسر من خلال الربط، بين المؤثرات التربوية لهذا الشخص، والمعايير

المتصلة بالتنشئة الشخصية السليمة، فهو لا شك إنسان فاقد للمحبة، ونجده بأمس الحاجة إلى الحب المتقبل غير الناقد الراض، الحب الذي يحتوي الآخر، ومن ثم يساعده هذا الشعور على اكتشاف مثله العليا واكتشافه بالمقابل لأخطائه.

فمثل هذا الشخص باقترابنا منه نجد حاجته الماسة للمحبة، ونجده يكره الآخرين وبالتالي نجده يلجأ للمثالية، لأنه يكبت عدم مثاليته بداخله، وأزمته الحقيقية تتحصر في كونه غير مقبول به كشخص، بل نجد تنشئته كانت منصبة دوماً على قبوله من خلال سلوكه السليم، وفي حال أخطأ فهو مرفوض، وهذه الجدلية التي يجب أن نركز عليها في التنشئة للأطفال، التنشئة التي عمادها التركيز على قبول الشخص بضعفه وبشاعته، بقوته ومرضه، لأننا بذلك نقبل إنسانيتنا، ومن هنا تكون البداية للعمل على السلوك الاجتماعي المتحرر من العقد المتراكمة، المبني على تعديل أي سلوك خاطئ بدون تخويف أو ترهيب، إذ يقبول السلوك الخاطئ، والاعتراف به من خلال الوعي به، تكون بذلك البداية التي لا بدّ منها لمحو هذا السلوك، وإحلال سلوك بديل عنه أكثر قبولاً وإنتاجية عوضاً عن السلوك الأول، إذ من خلال هذا الانفتاح على ضعف الآخر في حياتنا نعيش الرّحمة والتراحم، وتكون الانطلاقة لمساعدة الشخص ذي السلوك الشاذ على بناء أنه الفاعلة في حياته المجتمعية.

أحد عشر: إنّ الشخص المثالي لا يهتم بقيمة الذات الواقعية، فهو يعيش في دائرة مظلمة تحجب عنه رؤية ذاته في مرآة عاكسة بعيون المحيطين به، وبالتالي فإن هذه الذات المتشكلة لديه في ظل هذه القناعات لا قيمة لها على الصعيد الإنساني فينشأ أجوفاً وجدانياً.

إنّنا نحسّ بقيمة ذاتنا عندما نحس أن كلامنا وأفعالنا تلقى صدى عند الآخرين، وهنا تكمن عظمة اللغة التي تميزنا نحن البشر، وفي حين كان كلامنا لا يلقى القبول عند الآخر، عندها ينبغي أن المشكلة التي لدينا أولاً وقبل أن ينعكس كلامنا على منظور الآخر عبر تلقيه الخاص لهذا الكلام...

فبتكلم الشخص مع ذاته بحوار داخلي متصل نتيجة المبادلات الوجدانية والفكرية مع الآخرين بدءاً من والديه وإخوانه إلى المدى الأبعد فالأبعد، ومن ثم تكلمه العناني مع غيره إن وجد من يصغي إليه، بهذه الآلية يحس بقيمته الإنسانية، وبهذه الآلية تكون البداية المكونة للشخصية الإنسانية السوية، من خلال هذه "الصورة المرآوية"، وتبعاً (لجاك لاكان) تعاش انعكاسية ردود الأفعال، بانعكاس كلامنا في سمع الآخرين.

وانعكاس صورتنا في عين الآخرين كما هي، ليكون لسلوكنا انعكاسه المؤثر في حياة الآخرين...

اثنا عشر: إنّ عيشنا حالة المثاليات يقتل الجمال فينا، لأن الفهم المثالي يبقى في الذهن، وما يعاش يكون في الواقع، هذا هو المحك للتماهي بالآخر من دون ذوبان أو إلغاء، فلكل منا شخصيته واستقلالية صورة ذاته، كما للآخر ذلك...
فحتى لو كان الآخر مقرباً جداً كابن أو زوج، وهنا أورد مثلاً على ذلك: الزوجة التي تهتم بنفسها لإرضاء زوجها، وتتسى رضاها عن ذاتها، نجدها تغدو معذبة وحزينة، كذلك الأم التي تفكر أنّها تربي أولادها وفق قواعد مرسومة صارمة، فتهتم مثلاً: بطعامهم بحزم، وبحمامهم بحزم، وبمواعيد نومهم بحزم، دون أن تجد مساحة لإيجاد صدى لتعبيراتهم...

مثل هذه التربية يحكمها التعب، فالأم التي تقصّر قليلاً في أداء هذه المهمات لأبنائها، تجد نفسها غير مكتملة، ويحكمها شعور الذنب، لنجد أن عيش شعور الذنب يعمم الإحساس به عند أبنائنا، كذلك فيما بعد كونهم لم يرضوا بالصورة المثالية للابن لدى أمهاتهم، مثل هذا الحب عند هكذا أمهات هو حبّ تملكي وبالتالي مرضي، لذا علينا كأمهات عيش المحبة مع أبنائنا برحمة، أي بقبول الخطأ عندهم، والنظر إليهم كأشخاص آخرين منفصلين عنا، لهم حواسهم ومشاعرهم وتفكيرهم، ونحن كأمهات واجبنا الأخذ بيدهم، وليس بتلويح العصا وبحرمانهم من الحب ليعيشوا مشاعر ذنب، لمجرد أنهم لم يكونوا مثلما نريدهم،

فلندع أطفالنا يكونون ما يريدون ونوجههم لما هم مهيوون له، لا لِمَا نجده نحن مناسباً لهم.

فقد نجد الكثير من الأمهات في بلادنا، هن من يخترن العروس لأبنائهن الذكور على سبيل المثال، بحيث تختار مثل هذه الأمهات العروس لتكون ابنة لها قبل أن تكون عروساً لابنها، وهكذا تسيطر الأم على هذه الزوجة، ومن ثم على الأحفاد، وتكون متيقنة من أنّ زوجة الابن لن تبعده عنها، طالما تسمع كلامها وتخضع لأوامرها، وجميعنا يستطيع إيراد العدد الكبير من الأمثلة التي تظهر هذه الحالات في حياتنا اليومية.

وهنا لا بدّ من التأكيد على الصّعبوبة التي يعيشها الابن، من كون والدته تستمد قيمتها منه، فنجد لا يستطيع العيش بحريّة في علاقته الزوجية، لأتبه نشأ بدون قيمة لشخصيته، إلّا من خلال ما تمنحه والدته إياه من قيمة، فيعمل وفقاً للأمور التي تريدها هي. مثل هذا الولد نشأ على أتبه يستمد قيمته من والدته وحسب، وفق مثل أعلى "رضى الوالدين من رضاء الله" من دون التّفكر بمعنى هذا المثل، وبذلك نجده يعيش بدون قيمة وبدون ثقة، لأنّ الثقة بالنفس تعوزه على تحقيق أهدافه الشخصية في الحياة، ومن هنا يعيش مثل هؤلاء الشّباب صراعات عدة، ونجدهم متعددي الزوجات بحثاً عن قيمة لأننا، ونجدهم مترددين في قراراتهم وأعمالهم، لا يستطيعون أن يبادروا إلى أي تصرف، أو قرار دون العودة إلى الأم.

واليك المثل التّالي علّه يوضّح ما سبق: رجل كان والدّاً لطفل (توحد) سجل لدينا في مركز التأهيل النّفسي الخاص بي في العاصمة دمشق، وهذا الولد سجل لدينا منذ أكثر من خمس سنوات، ولكنه انقطع خلال هذه الفترة أكثر من سبع مرات، ومن ثم كان يعود، وكان سبب ذلك هو قرار جدته المتحكمة بقرار والده، ولم يكن لوالدة هذا الطفل أي حقّ في إبداء رأيها في ذلك رغم أن الأم، كانت خريجة علم نفس من جامعة دمشق، وتسكن في حي راقٍ، ومن أسرة مقتدرة مادياً، وكم من

مرة اتصلت بي هذه الأم، وهي منهارة من البكاء، لعدم مقدرتها أن تتابع الملاحظات التي نرسلها لها، وعندما تحتمج لوالده كان ينهال عليها بالضرب، وفي أحد المرات وبعد أن ضربها ضرباً مؤذياً، قالت له بانفعالٍ وقهر، أنت لست رجلاً وأنت عبدٌ لوالدتك، وهمجي ونتيجة هذا الكلام ما كان منه إلا أن طلقها، وبعد أقل من شهرين تزوج زوجة أخرى، والزوجة الجديدة جلست في بيت الزوجة الأولى، وعلى أغراضها كما أخبرتني أم الطفل طبعاً، وقد حرّمها الأب من ابنها وولديها الاثنتين البنت والولد الطبيعيين، أما الأب حين حاولت الاستفسار منه عن أوضاع البيت التي يعيش فيها ولده (الولد) المسجل لدينا في مركز الأوائل للتأهيل النفسي، ما كان منه إلا أن أوقف تسجيله، لمدة ثلاثة أشهر وبعدها أعاده، وهنا لم أقبل بتسجيله إلا بعد رؤية الجدة (والدة أب الطفل) والتّعرف منها عن رؤيتها لمشاكل الولد وما تجده مناسباً للعمل معه، وقد كانت متحمسة ومتباهية في التقاني، وكانت أحياناً تمدح عملنا في المركز ولكن بصيغة رشوة وليس إعجاباً واقتناعاً حقيقيين، وبناء على كلامها تقول: هي سوف تبقيه مسجلاً معنا، ومن خلال الثقة التي وصلت للجدة من عملنا، استطعنا أن نجعلها بالتدرّج تسحب قبضتها عن الولد وأبيه وأشركنا الأم في برنامج التأهيل المعمول به مع الطفل، وتوصلنا إلى نظام يساعد الولد في حياته الأسرية بأن يبقى في رعاية جدته كامل أيام الأسبوع ما عدا أيام العطلة حيث يذهب لوالدته، وبحيث يذهب كل يوم لرؤيته الأب، والاهتمام به والعيش معه قليلاً من الخصوصية، بأخذه في نزهة أو اللعب معه كرة سلة حيث كان الولد يحب ذلك، والذهاب مع والده من وقت لآخر للمسبح، وأيضاً هذا النشاط كان يحبه، حتى استقر واقع الحال عند هذه الأسرة، وبذلك نؤكد أن نمو استعدادات الأطفال تتفتح، وتنمو في الإطار السليم المستقر، من خلال السّياق الاجتماعي والثقافي، الذي يتفاعل معه الطفل ضمن أسرته ومحيطه الاجتماعي.

من الجدير ذكره أن هذه الجدة، كانت تكثر الشكوى المرضية على ولدها والد الطفل التّوحيدي المسجل لدينا، مُظهرةً تقانيها في سبيل راحة ابنها وأولاده، فهي

تعيش مبالغة في التعلق الأمومي، تمرض بشكل لا واعي، وقد تكرر هذا السلوك المرضي لديها حتى كاد أن يصبح سلوكاً مزمناً، وكل التحاليل والفحوصات تنفي الحالة المرضية...

مثل هذه الأم عاجزة عن العيش، انطلاقاً من نفسها وليس انطلاقاً من أي إنسان آخر، سواء كان ابناً أم زوجاً أم حتى ابن الابن...

والجدير قوله هنا، إذا المرأة في بلادنا لا تستطيع أن تعيش بدون الرجل، فهي لن تستطيع أن تعيش إلا معه، هذا هو اختبار قيمة الذات... لأنّ في ذلك رفضاً للآخرين، ودوام التأكيد على أن الشخص موجود باستحواذه على كامل مشهد الحياة المشتركة.

فالمرأة التي تعيش وراء شخصيّة هذا الرجل المتغترسة، تبدأ بكره ذاتها، وبالتالي تسقط عدم حبها لذاتها على زوجها، فنجدها لذلك تلاحقه، فالعلاقات البشرية اللاسوية، أو لنقول السلبية هنا، قد تنطلق من عدم الشعور بالقيمة، فتعلق الأم بابنها هو تعلق سلبي مرضي، كون الأم المستلبة حرّيتها لا يمكنها أن تحس بقيمتها إلا من خلال ابنها، وبالتالي تعيش من خلال موتها فيه، بأن تجعله هو يموت فيها كذلك... فهي أم تؤدي وظيفة أمومية غير فعالة، بل يحكمها القهر والضيق، من هنا ولأجل الاهتمام بالتهيئة للأمومة الجيدة المسؤولة، ومن المهم أن نلقي الضوء على تنشئة الفتيات في كثير من البيئات الشّعبية في عالمنا العربي، حيث تتلقى تربية دون أن تشعر بقيمتها في عائلتها كأنثى، فالأم تراها بنتاً همومها كثيرة، وأخوها لا يراها إلا كشخص قاصر حتى لو كانت أكبر منه، وحتى لو كان تعليمها الأكاديمي أفضل بكثير من أخوتها الذكور...

أذكر مثلاً لتوضيح ذلك، حالة سيّدة أنتتني بعد ثلاثة أسابيع من زواجها تشكو أنها مهددة بالطلاق، وزوجها أخبر أخاها بذلك من دون أن يقول لها أولاً، رغم أن هذه الزوجة متعلمة فهي مهندسة وزوجها مهندس أيضاً، ولكنهم ما زالوا اجتماعياً يعيشون في ظل علاقات قبلية تحكم حياتهم، وكم كانت هذه الزوجة

محبطة، ولا تعرف كيف تتقذ حياتها الرّوجية إذ إن الطّلاق المبكر هذا بعد أقل من شهر من زواجها، هو فضيحة اجتماعية كبيرة تضعها في الدّرك الأسفل، في تصنيف بنات القبيلة، رغم كونها متعلمة فهذا لا يشفع لها، وبعد تبيني للخلل الحاصل بينها، وبين الزوج عريس الهنا في الفترة القصيرة التي جمعتها معاً كزوجين، وجدت أن هذا الزوج بارد جنسياً لا يستطع إكمال العملية الجنسيّة بسبب العنانة التي هو عليها، ولا يريد أن يعترف، بل يعمد ليغطي حالته هذه بالقسوة على زوجته، وعندما اقترحت الزوجة عليه أن يستشير أحد الأطباء حول هذه المشكلة، فما كان من زوجها إلّا أن أهملها وقام بإخبار أخيها، بأنها امرأة وقحة لا تخجل، ومن الحلول التي اقترحتها هذه الرّوجة على زوجها، أن تسكت ولا تطالبه بحقوقها الرّوجية، إذا هو سكت وامتنع عن الطلاق، فهي مستعدة أن تضحى بمستقبلها العاطفي بكل تجلياته في الحياة الرّوجية، مقابل عدم الطّلاق الذي سوف يسبب لها فضيحة اجتماعية، ورغم ذلك لم يوافق الزوج، ولذلك وجدتها عندي في العيادة لا حول لها ولا قوة، ضائعة حائرة، عاجزة، هذه السيدة وكثيرات من السيّدات نجهنّ يعشنّ مع أنفسهن من وراء شخصية الزوج أو الأب، وبالتالي يسقطن حبهن لأزواجهن، وهذا العيش بخوف وتهديد، ما هو إلّا ردة فعل انفعالية على خطر ما سواء كان خارج الذات أم داخلها.

وللخوف كما تعلمون عدة أسباب فهناك الخوف السيكولوجي الذي يمثل ردة فعل انفعالية على خطر ما، سواء من خارج الإنسان أم من داخله.

أخيراً ومن خلال ما تقدم أصل إلى أنّ الشّخص المثالي نجده مرة بارداً ومرةً لامبالياً بمعطيات الواقع، ولاسيما حين يكون التعامل مع الأطفال وترك أمورهم للقدر أو لأمهاتهم، ولكن بالمقابل نجده يحسن الاهتمام بالآخرين وفقاً لأغراضه، للحصول على الاهتمام منهم، فهو يغذي حاجة نفسية تمنحه الشعور بالأمل والثقة، وتعمق الروابط مع المحيط، وحين يغيب الاهتمام يقوده ذلك إلى برودة المشاعر والجمود واللامبالاة، التي تؤدي لأشكال من الأمراض النفسية والجنوح.

وبشكل خاص الأطفال يحتاجون لمثل هذا النوع من العطف والحنان الذي يشتمل على اللمسات الجسدية، وهم عندما يحصلون على وجبتهم اليومية من اللمسات والكلمات الطيبة، ينمون انفعالياً بشكل أفضل. ولعلها تشكل أكبر التأثيرات اللامبالية في تربية الأبناء من كونها تحولهم إلى عدوانيين، وهائجين، فيخربون ليحصلوا على الاهتمام، حتى لو كان ذلك بالعقاب الذي هو شكل من أشكال الاهتمام الذي يطلبونه أحياناً، فهذه التشنئة تصيب هؤلاء الأطفال باليأس، فيتحولون إلى باردين انفعالياً، ولا يقدرّون على رؤية الأمور بواقعية بل دائماً في تطرف، ويميلون للمثالية كسلوك وقائي ودفاعي بآن معاً، وإلى سلوك اللامبالاة كحماية لذاواتهم أيضاً...

كتبت ذلك للتأمل معاً كيف هو الحال إذا قُدِّرَ لطفل ما من بلادي أنشئ بمثل هذه التشنئة أن يحكم بلداً، أو يكون له أتباع، عافانا وعافاكم الله، إذ إنّ كِلا أسلوبَي التربية المثالية، والتربية المتمثلة بالشفقة يمكن أن تشكلا أكبر تحديات الوصول للأنظمة الديمقراطية، وعيش الديمقراطية كأسلوب حياة عصرية في بلادنا.